أولادنا والخيال

- قوّة إنسانيّة لو استثمرناها -

د. سلطان ناصرالدّين

دار البنان
DAR AL BANAN

من حقِّ أولادِنـــا علينا أن نُنمِّيَ فيهم الخيالَ الإيجابيَّ.

أدمغــةُ أولادِنا ليســت أكياسًــا لحشــوِها بالمعارِفِ، إنّما هي لــزرعِ المعارِفِ المتأتّيةِ من المدرَكاتِ والخيالاتِ من أجلِ الإنتاجِ.

الخيــالُ الإيجابــيُّ قــوّةٌ إنســانيّةٌ عظيمةٌ لو استــثمرناها لَنقلتـنا

من مجتمعاتٍ مستهلكةٍ ناميةٍ

إلى مجتمعاتٍ منتِجةٍ فاعلةٍ،

ومن الظّلماتِ

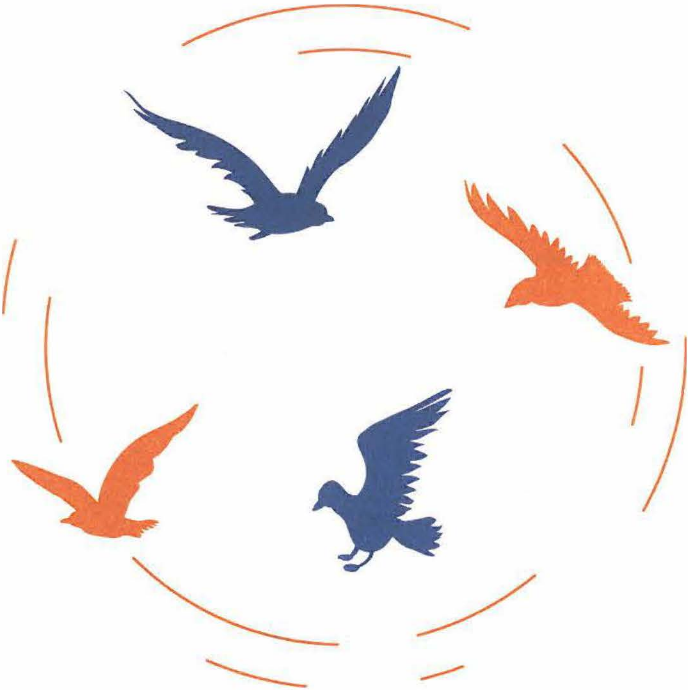
إلى النّورِ،

ومن ذُلِّ التّبعيّةِ والعبوديّةِ

إلى عزِّ التّحرّرِ والحرّيّةِ.

ISBN 978-614-455-026-7

دار البنان | للطّباعة والتّسجيل والنّشر والتّوزيع
لبنان. دير الزهراني. هاتف: 550 506 7 961+
www.daralbanan.com | e-mail: info@daralbanan.com



نبدأ بنصّ للشّاعر محمّد علي شمس الدّين؛ نستمعُ إليه / نقرأه، نتخيَّلُ:

«كي ترسُمَ عصفورًا

خُذْ قفصًا مَفتوحَ الباب

واجعلْهُ على الورقَهْ

ثُمَّ ارسُمْ شيئًا ما... ظِلاًّ أو وردةَ حقلٍ نافعةً للعصفور

وضعِ اللّوحةَ فوقَ الشّجرهْ

في رَوْضٍ أو في غابَهْ

وتَرَبَّص خَلْفَ الشّجرَهْ

مُختَبِئًا دونَ كلامٍ أو حَرَكَهْ

حتّى لا يَرتبكَ العصفور

أحيانًا يأتي كالسّهمِ سريعًا

لكنْ يُمكنُ أن تَمضي سَنواتٌ لا يأتي فيها

لا تَيْأسْ

فَوُصولُ العصفورِ سريعًا أَوْ بُطءُ وُصولِهْ

لا يُفسِدُ سِحْرَ اللّوْحَهْ

وإذا ما جاءَ فَلُذْ بالصَّمتِ المُطبَق

لا شَكَّ سَيَدخُلُ في القَفَصِ المفتوح

فإذا ما دَخَلَ العصفورُ بلا رَيبَه

أَغلِقْ بابَ الرّسمةِ بالرّيشه

ثُمَّ امحُ القُضبانَ ولا تمسَس ريشَ العصفوز

حتّى لا ينفُرَ منكْ

خُذْ قَلَمًا وارسُمْ شجرَهْ

واختَرْ أجملَ غُصنٍ فيها للعصفوز

ثُمّ ارسُمْ وَرَقَ الغُصنِ الأَخْضَر

وهبوبَ الرّيح

وشُعاعِ الشّمسِ وأصواتَ الحشراتِ العُشبيّةِ في الصَّيفْ

واجلِسْ منتظِرًا أن يبتدئَ العصفورُ بأُغنيةٍ

اِفرَحْ لو غنّى

فدليلٌ أنّكَ محظوظٌ

ودليلٌ أنّكَ تقدِرُ أن تَنزِعَ مِن ريشِ العصفورِ

برفقٍ واحدةً... وتُوَقِّعَ إسمَكَ في زاويةِ الصّورهْ»

بخيالِنا، تخيّلْنا «كيف ترسُمُ عصفورًا؟»

بإدراكِنا استقبلْنا المُدرَكات، وبخيالِنا حوّلْنا هذهِ المُدركاتِ إلى صُوَرٍ ذهنيّةٍ. بخيالِنا نطيرُ نحلّقُ. بخيالِنا نَبحثُ عن كلِّ جديدٍ. بخيالِنا نُنشّطُ أدمغتَنا. بخيالِنا نُنتجُ. بخيالِنا نُبدعُ.

الإنسانُ بخيالِه يَحلُمُ، ويحوّلُ أحلامَه إلى منتجاتٍ فنّيّةٍ أدبيّةٍ أو علميّةٍ.

حُلْمُ الإنسانِ لم يهدأْ منذُ زمنٍ بعيدٍ في أن يُرْسلَ صوتَه لمسافاتٍ طويلةٍ بعيدةٍ عبرَ الهواءِ؛ تخيّلَ وتخيّلَ، فكّرَ وفكّرَ، فاكتشفَ الإرسالَ اللاّسلكيَّ.

وكلُّ تخيّلٍ يواجهُ صعوباتٍ، ويخوضُ جولاتٍ ومحاولاتٍ، ويعيشُ إخفاقاتٍ وآمالاً حتّى يصبحَ حقيقةً.

وقد عانى غوليلمو ماركوني (Guglielmo Marconi) صعوباتٍ كثيرةً حتّى اكتشفَ سرَّ انتقالِ الموجاتِ اللاّسلكيّةِ عبرَ الهواءِ من دونِ أيّةِ أسلاكٍ؛ وعندما اكتشفَ ذلك اتّهمَه النّاسُ بالجنونِ، وأودِعَ المَصَحّةَ النّفسِيّةَ. وعندَما نجحَ في إرسالِ رسائلَ لاسلكيّةٍ قالوا: «إنّ ماركوني اخترعَ جهازًا في داخلِهِ عفريت».

ولكنَّ ماركوني لم يسمعْ إلاّ صوتَ خيالِه الإيجابيّ، وتابعَ مسيرتَه ليسجّلَ عام 1896 براءةَ الاختراعِ لجهازِه. وكانَ اكتشافُه أساسَ اختراعِ الرّاديو والتّلفزيون والرّادار والإنترنت...

واستمرّت مسيرةُ التّطويرِ والتّحسينِ في إرسالِ الأصواتِ بل والصُّورِ عبرَ الهواءِ. إنّنا نشعرُ، اليومَ، أنّنا في عصرِ معجزاتٍ، سببُها فكرُ الإنسانِ، سببُها خيالُ الإنسانِ.

إذا كانت أجهزةُ إرسالِ الأصواتِ والصّورِ بسرعتِها وعظمتِها من صنائِعِ خيالِ الإنسانِ، فإنّ خيالَ الإنسانِ أسرعُ وأعظمُ.

وإذا كانَ المخُّ البشريُّ جهازَ كمبيوتر يُمكنُه معالجةُ 38 تريليون عمليَّةٍ في الثّانيةِ الواحدةِ، وهو أسرعُ 585500 مرّةٍ من أسرعِ سوبر كمبيوتر في العالَمِ. فكم عمليَّةً عالجْنا في نصّ «كيف ترسمُ عصفورًا؟» وما السِّرُّ في هذا المخِّ الّذي هو جزءٌ من الدّماغ؟ وما السّرُّ في هذا الدّماغِ الّذي هو مستودَعُ الفكرِ، والفكرُ: إدراكٌ، وذاكرةٌ، وخيالٌ؟ انطلاقًا ممّا تقدَّمَ، نسألُ:

1. ما الخيالُ؟
2. كيف ندرّبُ الخيالَ ليكون قوّةً إنسانيّةً إيجابيّةً؟
3. كيف تتجلّى نتائجُ قوّةِ الخيالِ الإيجابيّ؟

أوّلاً ـ ماهيّة الخيال

الإنسانُ كائنٌ حيٌّ عاقلٌ اجتماعيٌّ، يدركُ، ويتذكّرُ، ويتخيَّلُ. فهو بإدراكِه يكوّنُ المعارفَ، ويتذكّرُها لتيسيرِ أمورِ حياتِه، وهو يتخيّلُ لزيادةِ معارفِهِ، وحلِّ مشكلاتِه، وتطويرِ حياتِهِ.

فالخيالُ مَلَكةٌ تدفعُنا نحوَ ثنايا المستقبلِ لاستكشافِه وسَبْرِ أغوارِهِ. وهو عمليّةُ خلقِ صُوَرٍ.

الخيالُ هو القدرةُ على إطلاقِ العِنانِ للأفكارِ من دونِ النّظرِ إلى الارتباطاتِ المنطقيّةِ أو الواقعيّةِ أو الالتزاماتِ. يقولُ ألبرت أينشتاين: «إنّ المنطقَ ينقلُ صاحبَه بينَ نقطتينِ أ و ب، أمّا الخيالُ فيأخذُ صاحبَه إلى أيِّ مكانٍ».

الخيالُ قوّةٌ بها نخترقُ الزّمانَ والمكانَ، بها نستطيعُ أن نسافِرَ في الزّمانِ، وأن نسافرَ إلى الأمكنةِ، وأن نخترقَ الحُجُبَ المادّيّةَ.

الخيالُ بساطُ الرّيحِ الحقيقيُّ، وسِمَةُ الإنسانِ المنتجِ.

الخيالُ توأمُ الحرّيّةِ. إذا قُمِعَ الخيالُ وُئِدَتِ الحرّيّةُ، وإذا وُئِدَتِ الحرّيّةُ خسرَ الإنسانُ شيئًا عظيمًا.

وإذا نشأَ الخيالُ على الصّورِ السّلبيّةِ فإنَّ منتجاتِه تظهرُ سلبيّةً؛ والسّلبيّةُ تدمّرُ.

وإذا نشأَ الخيالُ نشأةً عبثِيّةً تسيُّبِيَّةً فإنّ منتجاتِه تظهرُ عبثيّةً تسيُّبِيَّةً؛ والعبثِيّةُ فوضى، والتّسيُّبيّة قلقٌ؛ والفوضى والقلقُ آفتان؛ والآفةُ تقتلُ.

وإذا نشأَ الخيالُ على الحرّيّةِ والإيجابيّةِ فإنّ منتجاتِه تظهرُ إيجابيّةً؛ والإيجابيّةُ تعمِّرُ وتطوِّرُ، وتزرعُ الأمانَ والسّكينةَ.

القوّةُ هي الطّاقةُ، وهي المؤثِّرُ الّذي يغيِّرُ أو يميلُ إلى تغييرِ حالةِ سكونِ الجسمِ أو حالةِ حركتِه بسرعةٍ منتظمةٍ. وهي مبعثُ النّشاطِ والنّموِّ والحركةِ، وتنقسمُ إلى طبيعيّةٍ وحيويّةٍ وعقليّةٍ، وتنقسمُ أيضًا إلى باعثةٍ وفاعلةٍ.

وعلى ما تقدّمَ، فالخيالُ، من بابِ المجازِ، هوَ قوّةٌ طبيعيّةٌ كالهواءِ، في حركةٍ لا تهدأُ، يتركُ آثارًا كثيرةً؛ والخيالُ، من بابِ المجازِ، هوَ قوّةٌ حيويّةٌ كصعودِ النُّسغِ عبرَ أنسجةِ الخشبِ في النّباتاتِ، في حركةٍ خفيّةٍ تظهرُ آثارُها ورقًا أخضرَ وثمرًا أنضرَ؛ والخيالُ قوّةٌ عقليّةٌ باعثةٌ فاعلةٌ، قد تكونُ سلبيّةً، وقد تكونُ إيجابيّةً؛ فكيفَ ندرّبُ الخيالَ ليكونَ قوّةً إنسانيّةً إيجابيّةً؟

ثانيًا ـ الخيال الإيجابيّ قوّة إنسانيّة

الخيالُ قـوّةٌ إنسانيّة، تـتجلّى فاعليّـتُه الإيجابيّةُ إذا تمَّ تدريبُه تدريبًا مُتْـقَـنًا مستـندًا إلى خلفـيّة فلسفيّة إيجابيّة.

أ- في الخلفيّة الفلسفيّة الإيجابيّة:

1. الإيمانُ بأنّ قوى الفكرِ الإنسانيّ الثّلاثَ: الإدراكَ، والتّـذكّرَ، والخيالَ هي قوى متآزرةٌ.
2. الإيمانُ بأنّ تعطيلَ دورِ الخيالِ هو بترٌ للفكرِ الإنسانيّ، إذ إنّ قوّةً من قواه قد عُطّلت.
3. الإيمانُ بأنّ الخيالَ، بالتّآزرِ معَ الإدراكِ والتّذكّرِ، قوّةٌ منتجةٌ باعثةٌ فاعلةٌ، تحفظُ التّوازنَ، في الفكرِ الإنسانيّ، بينَ الاِستهلاكِ والإنتاجِ.
4. تحصينُ حرّيّةِ الخيالِ؛ فمن حقّ الإنسانِ أن يتخيّلَ ما يشاءُ بشرطينِ اثـنينِ محصّنينِ للحرّيّةِ، هما: الابتعادُ عن الأذى، والالتـزامُ بالقِيَمِ.
5. الوضوحُ في رؤيةِ الهدفِ الّذي يراه الإنسان، إذ إنّ الهدفَ يوجِّهُ بوصلةَ الخيالِ.

6. الحيويّةُ والاستمرارُ في رعايةِ الهدفِ داخلَ العقلِ الباطنِ؛ فالهدفُ جنين، والحيويّةُ كالمَشيمةِ ما بينِ الجنينِ والأمّ؛ الحيويّةُ هي حلقةُ الوصلِ بينَ الخيالِ والهدفِ.

7. التّكرارُ واعتمادُ الصّبرِ. فربَّ نتيجةٍ تأتي سريعةً، ورُبَّ نتيجةٍ تأتي بعد مُضيّ سنواتٍ.

8. طردُ الأفكارِ السّلبيّةِ إن حَوَّمَت، واجتثاثُها إن وُجِدَت؛ فالأفكارُ السّلبيّةُ موجودةٌ في الحياةِ، لكنْ على الإنسانِ ألاّ يسمحَ لها بأن تأخذَ مساحةً في فكرِه.

9. زرعُ الأفكارِ الإيجابيّةِ؛ فالأفكارُ الإيجابيّةُ غرسٌ طيّبٌ، جناه طيّبٌ.

10. سماعُ صوتِ الدّاخلِ القويّ النّقيّ، وتجاوزُ سخريةِ النّاسِ.

إنّ هذهِ الأفكارَ المبادئَ مهمّةٌ لجعلِ الخيالِ قوّةً إنسانيّةً إيجابيّةً، لكنّ أهمّيّتَها تظهرُ إذا صاحبَها مِرانٌ وتدرّبٌ.

ب ـ في التّدريبات:

التّدريبات الّتي نوردُها متأتّيةٌ من خِبراتٍ ودراساتٍ وأبحاثٍ، وهي سهلةُ التّنفيذِ بأوقاتٍ قليلةٍ، وفوائدَ عظيمةٍ.

1. الإدراك الحسّيّ: المدركاتُ الحسّيّةُ الخارجيّةُ تـتحوّلُ في أثـناءِ عمليّةِ الإدراكِ إلى مجموعةٍ من الصّورِ الذّهنيّةِ. فالكتاب الّذي أراه بعينيَّ هو مادّيُّ التّكويـنِ؛ وهو، في الدّاخلِ، صورةٌ ذهنيّةٌ قامَ العقلُ بتـكويـنِها بمساعدةِ الحواسّ. فالتّخيّلُ هو استحضارُ وتكوينُ الصّورِ الذّهنيّةِ لمختلفِ المواقفِ والخبراتِ الخارجيّةِ.

كلّما أدركنا المحسوساتِ بحواسّها المناسبةِ كلّها نَشُطَ الدّماغُ في تكوين الصُّورِ الذّهنيّةِ المتعلّقةِ بها، ونَشُطَ الخيالُ.

- فالجوزةُ تحتاجُ لإدراكِها إدراكًا كاملاً إلى: النّظرِ، واللّمسِ، والذّوقِ، والشّمِّ.
- والياسمينُ يحتاجُ لإدراكِه إدراكًا كاملاً إلى: النّظرِ، واللّمسِ، والشّمِّ.
- والجَرَسُ يحتاجُ لإدراكِهِ إدراكًا كاملاً إلى: النّظرِ، واللّمسِ، والسّمعِ.

ينبغي علينا ما أمكَن أن نساعدَ أنفسَنا وأولادَنا على أن تكونَ المدركاتُ الحسّيّةُ كاملةً غيرَ ناقصةٍ؛ ذلك أنفعُ للخيالِ وأجدى.

2. **التّخيّل البسيط النّشط:** تخيُّل موزةٍ في المطبخِ، تخيُّلُ شمعةٍ تشتعلُ، تخيُّلُ موجِ البحرِ، تخيُّلُ رائحةِ النّعناعِ، تخيُّلُ بسمةِ طفلٍ؛ كلُّها نشاطاتٌ بسيطةٌ تنشّطُ الخيالَ.

3. **القراءة المسموعة والمقروءة:** القراءةُ المسموعةُ والمقروءةُ، ولاسيّما قراءةُ القصصِ والرّواياتِ، منشّطةٌ للخيالِ، إذ منْ شأنِها أن تطلبَ مساندةَ الخيالِ لتحويلِ المَشاهدِ إلى مصوَّراتٍ ذهنيّةٍ.

هاكم نصيّن، نستمعُ إليهما / نقرأُهما، نتخيّلُ:

النّصّ الأوّل: «**شجرةُ توت**»

للكاتبة أمل ناصر

من كتاب «يُحكى أنّ».



شجرة توت

يُحكى أنّ شجرةَ توتٍ عظيمةً أصابَتْها رياحٌ سوداءُ، فيبسَت واهترأَت أوراقُها، واسودّت ثمارُها.

حاولَ صاحبُها، وقد كان يحبُّها كثيرًا، أن يعيدَ إليها الحيويّة: سقاها الماءَ؛ سمّدَ تربتَها بالأدويةِ؛ دهنَ جذعَها بالزّيوتِ؛ إلّا أنّ الشّجرةَ بَقيت على حالِها. تحجَّرَت أغصانُها، وتلبّدَ جذعُها.

وعندما أتى الفلّاحُ ليقطعَها حطَّ عصفورٌ صغيرٌ جدًّا على أعلى غصنٍ من الشّجرةِ، نقرَ حبّةَ توتٍ كانت شِبْهَ مهترئةٍ! تلذّذَ بطعمِها، وغرَّدَ طويلاً، ثمّ طارَ.

وقبلَ أن تَهوِيَ الفأسُ على جذعِ الشّجرةِ، كانَت ثمارُ التّوتِ النَّضِرَةُ قد أثقلَت أغصانَها بلونِها الأحمرِ اللّذيذِ! وكانَت أوراقُها الخضراءُ تظلّلُ مِقبَضَ الفأسِ!

أمل نــاصر

«يحكى أنّ»

النّصّ الثّاني: «العَقْدُ الأخير» لطاغور من كتاب «الهلال».

العَـقْـدُ الأخير!

«ألا مَن يُشَغِّلُني لديه»؛ هذا ما كنتُ أردّدُه عاليًا، في الصّباحِ، وأنا أسيرُ في الطّريقِ المُعبَّدةِ الحجريّةِ.

ومَـرَّ ملكٌ مستقلاً مركبتَه، وفي يدِهِ سيفُه. وأمسكَ بيدي، ثمَّ قال: «إنّني أُشغِّلُكَ، على أن أدفعَ أجرتَـك مشاركتَـكَ لي في سلطاني»؛ ولكنَّ سلطانَه لم يكنْ يحتوي على شيءٍ؛ ومضى بمركبتِه.

وفي الظّهيرةِ القائظةِ، كانت أبوابُ الدّورِ القائمةِ مُغلَقةً. وأخذتُ أضربُ هائمًا في دربٍ ملتويةٍ. وتقدّمَ شيخٌ يحملُ سَفَطًا مليئًا بالذّهبِ. فكّرَ، ثمّ قالَ: «إنّني أُشغّلُكِ على أن أَنقُدَكَ أُجرتَـك من مالي». وجعلَ يَعُدُّ نقودَه قُطعةً قُطعةً، ولكنّني انكفأْتُ راجعًا.

وكانَت الشّمسُ، عصرًا، تتألّقُ فوقَ الرّمالِ، وكانت الأمواجُ تتلاطمُ جامحةً. وكان طفلٌ جالسٌ يلهو بالأصدافِ. رفع رأسَه، وبدا كما لو أنّه يعرفُني، وقال: «إنّني أُشغِّلُكَ على ألّا أدفعَ شيئًا أجرةً لكَ». ومنذُ أن تمَّ الاتّفاقُ على هذا العَقْدِ الّذي جرى فيما كنتُ ألهو معَ طفلٍ، فقد أصبحتُ حرًّا.

طــــاغــور

4. **الشّعر:** قراءةُ الشّعرِ أو الاستماعُ إليه محفّزٌ للخيالِ، إذ إنّه غنيٌّ بالصّورِ، والصّورُ وليدةُ خيالاتٍ.

وهاكم بعضَ المنمنماتِ الشّعريّةِ؛ نستمعُ إليها / نقرأُها، نتخيّلُ:

1. المنمنمة الأولى: «**أمّنا العذراء**» للشّاعر مهدي منصور من كتاب «مريم»

يا أمَّنا العذراءَ، لم يسلَمْ لَنا
إلاّ سماحُكِ، فَاسمعي دَعْوانا
هذا بهاؤكِ ماسحٌ آلامَنا
وبياضُ كَفِّكِ حاملٌ ميزانا
كفٌّ تُرينا كيفَ يرفعُ حُبُّنا
منّا، ويبني صِدقُنا الأوطانا
واسمٌ يعلّمُ أرضَنا كيفَ السّماءُ
توحّدُ الإنجيلَ والقرآنا!

2. المنمنمة الثّانيّة: «**المدى**» للشّاعر محمّد توفيق أبو علي من «صفحة التّواصل» الخاصّة به.

قال صوتٌ للصّدى:

ما أحيلاهُ وَسيعَ الصّدرِ ذيّاكَ المدى

نُرسِلُ الآهَ إليه

فيصوغُ الآهَ غَيثًا وندى

ونُغنّي فيعيدُ الرَّجعَ فينا لحنَ حُبٍّ وحِدا

ما أحيلاه وَسيعَ الصّدرِ ذيّاكَ المدى!

3. المنمنمة الثّالثة: «**حجارة من القلب**» للشّاعر قزحيّا ساسين من كتاب «ماء الكلام».

كلّما سألتُ أبي رغيفًا أعطاني حجرًا.

كُنتُ أكرّرُ السّؤالَ، وهو يكرّرُ العطاءَ.

ومَعَ مرورِ الوقتِ،

بنيتُ بحجارةِ أبي بيتًا كبيرًا.

4. المنمنمة الرّابعة: «رخام الماء» للشّاعر جوزف حرب من كتاب «رخام الماء».

قلّبتُ مَوجَ البَحرِ... كَم صفحاتُهُ زرقاءُ!
أَطرافُها ناعِمَةٌ، زَبَديّةٌ، بَيضاءْ.
صَفحَةً صَفحَةً
قَلَّبتُ ديوانَ المِياهِ، قَصائِدَ المِلْحِ،
الغَمامِ، الرَّقْصِ في خَصْرِ التَّمَوُّجِ،
وَالرِّياحِ العابِراتِ، وغَمسَةِ المِجذافِ،
وَالبَرقِ المُزَيِّحِ، والشّتاءْ.
في كلِّ شيءٍ، قَدْ تَرى ظِلاًّ لِهذا البحرِ، أَوْ مَعنًى لَهُ.
أَجْمَلُ ما في البَحرِ مَا لَيسَ بِهِ. فَالعُشْبُ، والأَشْجارُ،
وَالسُّنبُلَةُ الخَضراءْ،
وَالوَردَةُ الحَمراءْ،
حتّى الصّخرُ، والعُصفورُ، والجَدوَلُ،
والعُنقودُ، مَعنًى مِنْ مَعاني البَحرِ.
مَعنًى دَاخِلَ المعنى الّذي داخِلَهُ مَعنًى آخرِ

يَحْمِلُ في طَيّاتِه مَعْنًى.

فَعُنْقودٌ لَهُ مَعنى عريشٍ حامِلٍ مَعنى ترابٍ

حامِلٍ مَعْنًى مَنَ المَطَرِ الّذي يَحْمِلُ مَعْنى الرّيحِ،

في داخِلِهِ مَعْنًى لِبَرْقٍ حاملٍ مَعْنى سَحابٍ فيهِ مَعْنى البَحْرِ.

كَمْ مَعْنًى تَضَمَّنَ طَيَّهُ مَعْنًى بِهذي العُشْبَةِ الخَضْراءِ

حتّى أَصْبَحَتْ عُشْبا؟ أَلَيسَ الشِّعْرُ

أَشْباحَ مَعَانٍ جُمِّعَتْ في قامةِ المَعْنى الّذي لَيْسَ بمعنًى واحدٍ؟

كَمْ صورَةً في صورةٍ أُخرى؟

وَكيفَ الشَّيءُ مِنْ أَزْحامِهِ تَتَوالدُ الأَشْياءُ؟

كُلُّ مَعاني الأَرْضِ مِنْ مَعْنى مِياهِ البَحْرِ.

إِنَّ البَحْرَ نَحّاتٌ عَجيبُ النَّقْشِ، لا مُتناهيَ المَعنى.

وإنَّ الشّيحَ، والبَلْبُلَ، وَاليَنْبوعَ، وَالوَزّالَةَ المِسْكيَّةَ الصَّفراءَ،

مَعانٍ مِنْ مَعاني البَحْرِ.

إنَّ البَحْرَ نَحّاتٌ، وذي الأَشْياءَ مَنْحوتاتُهُ، مِنْ سَرْوَةِ اليَنْبوعِ،

حتّى نَخْلَةِ الصّحراءِ.

يا لَبهاءِ النّحْتِ في هذي التّماثيلِ الّتي أَسْكَنَها البَحْرُ

رُخامَ الماءِ!

5. **ابتكار صور:** إنّ تدريبَ الخيالِ على ابتكارِ صُوَرٍ مجازيّةٍ تدريبٌ سهلٌ ممتعٌ منشّطٌ. جميلٌ أن نقرأَ صورًا مجازيّةً؛ وجميلٌ أن نبتكرَ صورًا مجازيةً ونسجّلَها؛ فمن الشّواهدِ للصّورِ المجازيّةِ:

- شراعُنا أجنحةُ فَراشٍ.
- نورُ الحبرِ بسوادِه بيّضَ الصّفحاتِ.
- لا تعزفُ حرّيّةٌ بغيرِ عصفورٍ.
- لي جسدٌ يقطرُ وردًا.
- البرقُ صديقُ الغيمةِ.
- الخيالُ بساطُ ريحٍ.
- لي خيالٌ يقطرُ شذًا.

6. **أحلام اليقظة:** أحلامُ اليقظةِ هي إعمالُ الذّهنِ في تحقيقِ الرّغباتِ بما يحقّقُ إشباعًا على مستوى الخيالِ. ونلجأُ إليها ونشردُ فيها كي نحقّقَ إشباعًا لا نستطيعُ تحقيقَه في الواقعِ. هي صديقُ الإنسانِ الدّائمُ؛ وهي نوعان: نوعٌ سلبيٌّ محبِطٌ، ونوعٌ إيجابيٌّ محفّزٌ. وعلى الإنسانِ أن يختارَ النّوعَ

الثّاني. لا مانعَ، مثلاً، من أن:

- يحلمَ بأنْ يمتلكَ بستانًا كبيرًا.
- يحلمَ بأنْ يصلَ إلى الجزائرِ طائرًا من لبنانَ بنصفِ ساعةٍ في طائرةٍ جديدةٍ.
- يحلمَ بأنْ يرسلَ عطرًا للحبيبِ عبرَ تطبيقٍ جديدٍ في الهاتفِ.

7. **الأسئلة:** الأسئلةُ حاجةٌ، وهي تحتاجُ إلى أجوبةٍ. بعضُها نجدُ له إجابةً في المعارفِ؛ وبعضُها نجدُ له إجاباتٍ متعدّدةً في المجرّداتِ؛ وبعضُها لا نجدُ له إجابةً. علينا ألاّ نقمعَ الأسئلةَ؛ ومن الشّواهدِ على الأسئلة:

- إلامَ يحتاجُ النّباتُ كي ينمو؟
- كيف يتمُّ فحصُ مخزونِ الحديدِ في الدّمِ؟
- ما الجمالُ؟
- ما الحبُّ؟
- أينَ يكونُ الإنسانُ بعدَ الموتِ؟
- لماذا لم يتوصّلِ الطّبُّ إلى القضاءِ نهائيًّا على السّرطان؟

الأسئلةُ هي الصّوتُ النّاطقُ للخيالِ. وسواءٌ تـمّت الإجابةُ عنها أم لم تـتـمَّ فإنّها منشّطةٌ للخيالِ. يـقولُ الشّاعرُ والرّوائـيّ إبراهيـم نـصراللّه: «لاهثًا أركضُ، قاطعًا العمرَ بيـنَ سؤالٍ وآخرَ، باحـثًا عن إجابةٍ أستريحُ على عتباتِها قليلاً لأواصِلَ أسئلتي».

8. **التّأمّل:** إنّ وضعَ أشياءَ محسوسةٍ أمامَنا، والانطلاقَ منها إلى أفكارٍ مجرّدةٍ تدريبٌ منشّطٌ للخيالِ.

فلو تأمّلْنا شجرةَ السّنديانِ أوْ صورتَها، لأمكَننا أخذُ أفكارٍ مجرّدةٍ كثيرةٍ، ومنها:

- التّـكاملُ بينَ العناصرِ قـوّةٌ.
- ثمّةَ من يعملُ خلفَ السّتارِ، وثمّةَ من يعملُ أمامَ الملأ؛ ولكلٍّ دورُه.
- التّـشبّثُ بالقِيَـمِ يَحمي.
- الخيالُ كهواءِ الشّجرةِ، لا يحدُّه مكانٌ.

9. **الخروج عن المألوف:**

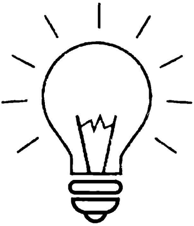
من الأنشطةِ الّتي تنمّي الخيالَ بسرعةٍ فائقةٍ تدريبُه على طرحِ أفكارٍ غيرِ مألوفةٍ. من تـلكم الأفكارِ:



- صناعةُ قبّعةٍ تزيلُ الألمَ.
- صناعةُ قبّعةٍ تزيلُ القَلقَ.
- صناعةُ قبّعةٍ تحفظُ الأفكارَ الجميلةَ، وتُعيدُها.
- صناعةُ قبّعةٍ تفحصُ الدّماغَ ونشاطَه.
- صناعةُ قبّعةٍ تتكلّمُ.

10. الأفكار الإيجابيّة:

الأفكارُ وَقودٌ، إذا كانت سلبيّةً أتت النّتائجُ سلبيّةً؛ وإذا كانت إيجابيّةً أتت النّتائجُ إيجابيّةً؛ تكرارُ الأفكارِ الإيجابيّةِ يحفّزُ الخيالَ الإيجابيَّ وينشّطُه؛ ومن تلكم الأفكارِ:



- أنا أقدرُ
- أنا أستطيعُ
- أنا أنجحُ
- أنا أمتلكُ طاقاتٍ وقدراتٍ.
- أنا أقدّمُ شيئًا مفيدًا لي وللآخرين.

ثالثًا ـ نتائج قوّة الخيال الإيجابيّ

الخيالُ الإيجابيُّ قوّة إنسانيّةٌ استثمارُها غيرُ معقّدٍ، بوقتٍ قليلٍ وجهدٍ قليلٍ، ونتائجَ عظيمةٍ جليلةٍ؛ ومن هذهِ النّتائجِ:

1. **التّوازنُ في بنيةِ الفكرِ**: الخيالُ الإيجابيُّ يساهمُ في الحفاظِ على التّوازنِ في بنيةِ الفكرِ؛ وهذا التّوازنُ مصدرُ قوّةٍ باعثةٍ فاعلةٍ.
2. **تنميةُ قيمةِ الحرّيّةِ**: الخيالُ الإيجابيُّ هو ماءُ الحرّيّةِ وقوتُها وشمسُها وهواؤُها؛ والحرّيّةُ مرقاةٌ للإنسانِ.
3. **ترشيدُ العاطفةِ**: العاطفةُ سندٌ للفكرِ، ومن خلالِ مزجِها بالخيالِ الإيجابيِّ نضمنُ فاعليّتَها الإيجابيّةَ.
4. **تنشيطُ جهازِ المناعةِ الجسديّ**: إنّ تنشيطَ العلاقةِ بينَ العقلِ الظّاهرِ من خلالِ المدرَكاتِ الحسّيّةِ والعقلِ الباطنِ من خلالِ تحوّلِ المدرَكاتِ الحسّيّةِ إلى صُوَرٍ ذهنيّةٍ له آثارٌ إيجابيّةٌ. هذا التّفاعلُ في التّخيّلِ التّصوّريِّ مرتبطٌ بالغدّةِ تحتَ المهادِ Hypothalamus. وهذه الغدّةُ مسؤولةٌ عن كثيرٍ من الوظائفِ، ومن وظائفِها: ضبطُ السّلوكِ

الانفعاليّ، وتـنشيطُ أجهزةِ المناعةِ، وتـنظيـمُ حركةِ الماءِ، وتنظيمُ سلوكِ اليـقظةِ والنّومِ.

5. **تـنشيـطُ القشرةِ الدّماغيّةِ:** إنّ تـخيّلَ أشياءَ بسيـطةٍ يؤدّي إلى تـنشيطِ أماكنِ قشرةِ الدّماغِ Cortex. الصّورُ الذّهنيّة تكونُ في داخلِ العقلِ الباطنِ، ولها تأثيرٌ على عقولِنا وعلى أدمغتنا، وعلى كلِّ خليّةٍ في الجسمِ.

6. **الانطلاقُ والتّوسّعُ:** إنّ التّخيّلَ البصريَّ أو التّصوّرَ من خلالِ الصّورِ المتأتّيةِ من القراءةِ المسموعةِ والمقروءةِ ومن الشّعرِ يسمحُ للخيالِ بالانطلاقِ وامتلاكِ مِساحاتٍ أوسعَ وأرحـبَ. فمعَ التّخيّلِ البصريِّ يحدثُ حوالى 100,000 تـفاعلٍ كيميائـيٍّ داخلَ المخِّ البشريِّ في الثّانيـةِ الواحدةِ.

7. **الإبداعُ:** تُعتبرُ مِساحةُ التّخزينِ الخاصّةُ بالمخِّ البشريِّ «لا نهائيّةً»، ولا يـمكنُ أن يـمتلئَ عن آخرِه، على عكسِ أجهزةِ الحاسوبِ أو غيرِها. وعليهِ فإنَّ ابتكارَ الصّورِ يحتاجُ إلى مِساحاتٍ لحفظِها؛ ولهذا فإنّ المخَّ يقومُ بإنشاءِ خلايا وروابطَ عصبيّةٍ جديدةٍ. وابتكارُ الصّورِ سبيل إلى الإبداع فـنًّا وأدبًا.

8. **زيـادةُ منسوبِ الأمـلِ:** أحـلامُ اليـقظةِ الإيـجابيّةُ وسيلةٌ للتّـنفيسِ، تُـشعرُ صاحبَها بالرّاحةِ، وتـجدّدُ قواه، وتـشجّعُه، وتـحفّزُه، وتـزيدُ من قدراتِه. يـقولُ الكاتـبُ المدرّب الأستراليّ بول ويلسون: «نـحنُ نـعيـشُ في عصرٍ يـمجّدُ المنـطقَ؛ وهذا لا يـمنحُ الأملَ. عـندما تُـشغلُ عقلَك بالـخيالاتِ وأحلامِ اليـقظةِ يـصبحُ في مقدورِك أن تـقوّيَ الأملَ وبفاعليّةٍ أكثـرَ ممّا تـفعلُه أيُّ فكرةٍ منطقـيّةٍ».

9. **الاخـتـراعاتُ والاكـتـشافاتُ:** الأسئلةُ سبيـلٌ إلى الإبداعِ فـي الاخـتـراعاتِ والاكـتـشافاتِ، وهـي قلبُ البحوثِ ولاسيّما العلميّةِ. الأسئلةُ هي المطيّةُ الّتي يـركبُها الباحـثونَ للوصولِ إلى المعارفِ.

قال أميّةُ بنُ أبي الصَّلت: «وقد يـقـتـلُ الجهلَ السّؤالُ ويشتـفي». وقال الخليلُ بنُ أحمدَ الفراهيديّ: «العلومُ أقفالٌ مفاتيحُها السّؤالاتُ؛ فإذا ملكتَ المفتاحَ فتحتَ ما شئتَ، وهو بينَ يديكَ».

10. **النّجاحُ والفوزُ:** إن العقلَ لا يـمّيزُ بينَ الحقيقةِ والخيالِ. فالعقلُ أو أداتُه الدّماغُ لا يميّزُ ما يستقبلُ بالحواسّ وما يستقبلُ بالمخيَّلةِ. وعليه، فكلُّ صورةٍ إيجابيّةٍ، ولو كانَت خارجةً عن المألوفِ، هي غنًى له، وتؤدّي إلى نجاحٍ.

ففي أولمبياد عامَ 1980، قامَ الفريقُ الرّوسيُّ باستخدامِ طريقةٍ جديدةٍ في التّدريبِ، فقسّمَ الفريقَ عشوائيًّا إلى أربعِ مجموعاتٍ:

- المجموعة الأولى: 100% تدريب تقليديّ جســـديّ.
- المجموعة الثّانية: 75% تدريب تقليـديّ جســـديّ.
25% تدريب عقلـــيّ تخيّـلـــــيّ.
- المجموعة الثّالثة: 50% تدريب تقليـديّ جســـديّ.
50% تدريب عقلـــيّ تخيّـلـــــيّ.
- المجموعة الرّابعة: 25% تدريب تقليـديّ جســـديّ.
75% تدريب عقلـــيّ تخيّـلـــــيّ.

والنّتيجة: المجموعة الرّابعة حقّقَت أكبرَ قدرٍ من أوسمةِ الفوزِ.

11. **حلُّ المشكلاتِ:** توصّلَ باحثونَ في جامعةِ دارتموث (Dartmouth College) في دراسةٍ جديدةٍ (2016) إلى تحديدِ مكانِ الخيالِ في الدّماغِ، وهو شبكةٌ عصبيّةٌ على نطاقٍ واسعٍ في الدّماغِ تُدعى «مساحة العمل العقليّ»، تمَّ اكتشافها بوساطةِ التّصويرِ بالرّنينِ المغنطيسيِّ الوظيفيِّ.

كلّما نَشُطَت الصّورُ الخياليّةُ نَشُطَت مساحةُ العملِ العقليّ؛ وهذه المساحةُ تتحكّمُ في: وعي الصّور، وعي الرّموز، وعي الأفكار، وعي النّظريّات؛ وهي تعطي البشرَ القدرةَ على التّركيزِ الذّهنيِّ اللاّزمِ لحلِّ المشاكلِ المعقّدةِ، وعلى الإتيان بأفكارٍ جديدةٍ، وعلى الإبداعِ.

12. **السّعادة:** إنّ التّخيّلَ الإيجابيَّ، بكلِّ مقوّماتِه الإيجابيّةِ، يؤدّي إلى السّعادةِ الدّاخليّةِ؛ والسّعادةُ الدّاخليةُ قوّةٌ لها آثارُها الإيجابيّةُ في الحياةِ.

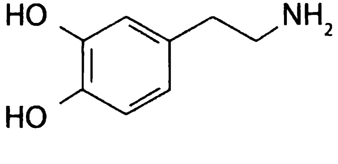
هذا ما أكّدته دراسةٌ قامت بها جامعة «هارفارد» (Harvard University)؛ وقد دامَت هذه الدّراسةُ 75 عامًا؛

وتُعَدُّ أطولَ دراسةٍ على مرِّ التّاريخِ، إذ بدأَت عامَ 1938، وتابَعها 268 طالبًا من جامعةِ «هارفارد». ونُشِرَت نتائجُ هذه الدّراسةِ عام 2012 في كتاب الدّكتور «جورج فيلان» والّذي قادَ الدّراسةَ من عامِ 1972 إلى عامِ 2004.

وكشفَتِ الدّراسةُ أنّ السّعادةَ تأتي من اختيارِ الشّخصِ لأن يكونَ سعيدًا، ومن العواملِ المساعدةِ على ذلك تكرارُ الأفكارِ الإيجابيّةِ المساعدةِ على التّخيّلِ الإيجابيِّ. هذا التّخيّلُ الإيجابيُّ يؤدّي إلى إفرازِ كمّيّةٍ أعلى من هرمون الدّوبامين (Dopamine). ولهذا الهرمون وظيفتان:

أ. يضفي السّعادةَ على الإنسانِ؛ فيصبحُ نشيطًا، حيويًّا، ذا طاقةٍ تدفعُه إلى المزيدِ من العملِ والإنتاجِ.

ب. يجعلُ الإنسانَ أكثرَ ذكاءً وأكثرَ قدرةً على رؤيةِ الفرصِ المتاحةِ والإفادةِ منها، وبالتّالي تحملُه على تقديمِ إنجازاتٍ أكثرَ، فيشعرُ بسعادةٍ أكبرَ، وإفرازٍ متجدّدٍ للدّوبامين.



الخيالُ قوّةٌ إنسانيّةٌ، إذا درّبَها الإنسانُ واستثمرَها استثمارًا إيجابيًّا فإنّها تحميه من الخوفِ، والقلقِ، واضطرابِ عملِ القلبِ، والرّجفةِ، والتّشتّتِ، والسّلبيّة، وتمنحُه الشّعورَ بالرّاحةِ، والحرّيّةِ، والتّوازنِ الدّاخليّ، والسّكينةِ، وتنشّطُ جهازَه المناعيَّ والعلاقةَ بينَ العقلِ الباطنِ والعقلِ الظّاهرِ، وتوسّعُ مساحةَ التّخزينِ في الدّماغِ، وتؤدّي إلى الإبداعِ فنّيًّا وعلميًّا، وإلى حياةٍ سعيدةٍ مستدامةٍ.

إذ كانَ للخيالِ الإيجابيِّ هذه القوّةُ،

وإذا كان تدريبُه لا يكلّفُ أوقاتًا طويلةً،

فإنّنا مدعوّونَ إلى إعادةِ النّظرِ في فلسفتِنا التّربويّةِ

تجاهَ أنفسِنا،

وتجاهَ أولادِنا،

في بيوتِنا، وفي مدارسِنا، وفي جامعاتِنا،

وفي مناهجِنا التّربويّةِ الّتي تغيبُ عنها الرّؤيا في استثمارِ قوّةِ الخيالِ الإيجابيِّ.

مناهجُنا التّربويّةُ تهمّشُ الخيالَ، أو تقمعُه، أوتئِدُه.

من حقِّ أنفسِنا علينا أن نعيشَ بقوّةِ الخيالِ الإيجابيِّ.

من حقِّ أولادِنا علينا أن نُنمّيَ فيهم الخيالَ الإيجابيَّ.

أدمغةُ أولادِنا ليست أكياسًا لحشوِها بالمعارِفِ،

إنّما هي لزرعِ المعارِفِ المتأتّيةِ من المدرَكاتِ والخيالاتِ

من أجلِ الإنتاجِ.

الخيالُ الإيجابيُّ قوّةٌ إنسانيّةٌ عظيمةٌ

لو استثمرناها لَنقلتنا

من مجتمعاتٍ مستهلكةٍ ناميةٍ

إلى مجتمعاتٍ منتِجةٍ فاعلةٍ.

الخيالُ الإيجابيُّ قوّةٌ إنسانيّةٌ عظيمةٌ

لو استثمرناها لَنقلتنا

من الظّلماتِ

إلى النّورِ،

ومن ذُلِّ التّبعيّةِ والعبوديّةِ

إلى عزِّ التّحرّرِ والحرّيّةِ.